

حول كتاب خلق الإنسان

لأبي محمد الحسن بن أحمد بن عبد الرحمن

د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي

استهلت مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق الجزء الثاني من مجلدها الثالث والسبعين (ذو الحجة ١٤١٩هـ) بمقال للأستاذ الجليل الدكتور إحسان النص بعنوان: «مصنفات اللغويين العرب في خلق الإنسان»، سرد فيه أولاً أسماء اللغويين الذين ألفوا في هذا الموضوع أو أفردوا له باباً أو أكثر في بعض مؤلفاتهم^(١)، ثم تحدث عن أربعة كتب من الكتب المفردة فيه بشيء من التفصيل. ورابعها كتاب خلق الإنسان لأبي محمد الحسن بن أحمد بن عبد الرحمن الذي نشره معهد المخطوطات العربية بالكويت عام ١٤٠٧هـ بتحقيق الصديق الدكتور أحمد خان ومراجعة الأستاذ مصطفى حجازي.

وكنت قد اطلعت على كتاب أبي محمد بعد نشره بقليل، وعناني من أمر مؤلفه ما عنى محققه من قبل، ففتشت ونقبت، فلم أوفق إلى الكشف عن شخصيته، غير أنني وقفت فيما بعد، في أثناء قراءتي، على نصوص لها صلة بهذا الكتاب، وفيها شيء من الإثارة والطرافة، كما ظفرت بترجمة عبد الله بن الحسن العبدري الذي نسخ نسخته من أصل المؤلف في مدينة الإسكندرية، ولهذا الترجمة أهميتها في تعيين زمن المؤلف، بالإضافة إلى ملحوظات عنت لي في مقدمة المحقق ونص الكتاب، فعلقت كل ذلك في حواشي نسختي.

فلما قرأت مقال الدكتور إحسان النص أحببت أن أهدي إليه هو

ومحقق الكتاب ما وقفت عليه، مع مراجعتهما في بعض ما ذهب إليه، والتنبيه على أوهام يسيرة وقعت في كلامهما.

(١) كتاب خلق الإنسان بين الصغاني وأبي محمد:

ذكر الدكتور إحسان النص من المؤلفين في خلق الإنسان رضي الدين الحسن بن محمد الصغاني (٦٥٠هـ). وقد سبقه إلى ذلك كثير من الباحثين^(٢)، وكان اعتمادهم جميعاً على بروكلمان الذي أحال على نسخة منه محفوظة في مكتبة داماد زاده ضمن مجموع برقم ١٧٨٩ (الترجمة العربية ٢١٨/٦)، ولم يفتن الدكتور إحسان إلى أن كتاب أبي محمد الذي تحدث عنه بعد صفحات هو الكتاب نفسه الذي نسب خطأً إلى الصغاني، وذلك على الرغم من أنه اطلع على مقدمة المحقق، وناقشه في ما ذهب إليه في الكشف عن مؤلفه، وقد تكلم المحقق فيها بالتفصيل على قضية نسبة الكتاب ونفيه عن الصغاني.

وكان منشأ الغلط - كما أشار الدكتور أحمد خان - أن المجموع المذكور يضم عشرة كتب كلها للصغاني إلا الكتاب العاشر، ثم لم يثبت في أوله عنوان الكتاب ولا اسم مؤلفه، فلعل من أعد فهرس الكتب المحفوظة في مكتبة داماد زاده لما تصفح محتوى المجموع، ورأى تسع رسائل متتالية للصغاني، ولم يجد اسم المؤلف في بداية الكتاب العاشر، استعجل، ولم يدقق في ما ورد في نهايته ولا نهاية الكتاب التاسع بخط مختلف، من اسم الكتاب العاشر واسم مؤلفه، فنسبها كلها إلى الصغاني في دفتر المكتبة الذي استند إليه بروكلمان، ثم عوّل عليه كل من نسب كتاباً في خلق الإنسان إلى الصغاني في هذا القرن. وأكد الدكتور أحمد خان نفيه عن الصغاني بأنه لم يثبت أصلاً أن الصغاني

ألف كتاباً في هذا الموضوع، فلا هو أشار إليه في مؤلفاته، ولا تلامذته، ولا أحد ممن ترجم له.

الذي أريد أن أضيفه هنا أن نسبة هذا الكتاب إلى الصغاني أقدم من هذا بكثير. فقد توارد عدد من العلماء على نقل نص من كتاب في خلق الإنسان نسبوه إلى الصغاني، وهو في الحقيقة مأخوذ من كتاب أبي محمد هذا. ولعل أولهم بدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ)، فقد ذكر السيوطي (٩١١هـ) في كتاب المزهري في كلامه على لفظة [يقبح ذكرها] أن لأهل العربية فيها ثلاثة مذاهب: أحدها أنها مولدة، قال به صاحب القاموس، وسلامة الأنباري في شرح المقامات. والثاني أنها عربية، و«رححه أبو حيان في تذكروته، ونقله عنه الإسوي في المهمات، وكذا الصغاني في كتاب خلق الإنسان، ونقله عنه الزركشي في مهمات المهمات»^(٣)، والثالث أنه فارسي معرب، وهو رأي الجمهور منهم المطرزي في شرح المقامات»^(٤).

اقتصر السيوطي هنا في المزهري على ذكر مذاهب العلماء في الكلمة ولم يورد نص كلامهم بل أحال على كتاب آخر له قائلاً: «وقد نقلت كلامهم في الكتاب الذي ألفته في مراسم النكاح»^(٥).

وللسيوطي أكثر من كتاب في موضوع النكاح، وقد ذكر بنفسه أنه سؤد فيه مسودات متعددة أكبرها سماها «مباسم الملاح ومناسم الصباح في مواسم النكاح»، ولعلها هي التي أشار إليها في كتاب المزهري. وكانت مرتبة على سبعة فنون، وقد بلغت خمسين كراسة فاستطالها، فاختصرها في عُشرها باسم: «الوشاح في فوائد النكاح»، كما ذكر في مقدمته، ويبدو أن الأصل لم يخرج

من المسودة فضاع، أما المختصر فقد وصل إلينا في عدة نسخ محفوظة في مكتبات العالم، وقد طُبِعَ أيضًا في مصر عام ١٢٧٩هـ^(٦)، ولكن لم أحصل عليه.

وأُنشد أبو حيان في تذكرته على أنه عربي قول الشاعر... ونقله عنه الإسنوي في المهمات وقال: إنه وقعت هذه اللفظة في شعر متقدم، وأظن أول من أوردها في شعره محمد بن سكرة الهاشمي الشاعر...»^(٧).

النص الذي عزاه السيوطي إلى خلق الإنسان للصغاني موجود بعينه في كتاب خلق الإنسان لأبي محمد (ص ٢٥٧). فهل اطلع السيوطي نفسه على مصدر هذا النص؟ طريقته في النقل في كتاب الوشاح تبيى بذلك، فإنه لم يذكر هنا كتاب الزركشي مهمات المهمات، وأحال مباشرة على كتاب خلق الإنسان. لكن الذي نرجحه أن السيوطي لم يقف بنفسه على كتاب خلق الإنسان، وإنما اعتمد على نقل الزركشي في مهمات المهمات، كما توحى بذلك عبارته في المزهري.

ويؤيد ذلك أننا لا نجد نقلاً آخر من كتاب خلق الإنسان هذا في مؤلفاته الأخرى، ثم هو نفسه لما أراد تأليف كتابه «غاية الإحسان في خلق الإنسان» بحث عن الكتب المؤلفة في هذا الموضوع، فلم يظفر إلا بخمسة كتب: كتاب أبي جعفر النحاس (٣٣٨هـ)، وكتاب ثابت (من القرن الثالث الهجري) وكتاب الزجاج (٣١١هـ)، وكتاب ابن حبيب (٢٤٥هـ)، وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن الهيثم العصافي (?). فجمع ما في هذه الكتب مع الزيادة عليه. ولما تكلم فيه على اللفظ المشار إليه قال: «وهو عربي صحيح، وقيل فارسي، وقيل، مؤلّد»^(٨)، فليخص فيه ما قاله في كتاب المزهري، كما لخص في المزهري ما أفاض فيه

من قبل في كتابه «مواسم النكاح»، ثم اختصره في «الوشاح».

أما إغفال السيوطي ذكر مهمات المهمات في الوشاح، فلعل السبب في ذلك أنه لم ترد في كتاب الزركشي فائدة زائدة على هذا النقل من كتاب خلق الإنسان، مما يوجهه إلى ذكره، وهو بصدد اختصار مسودة كبيرة استطلها، بالإضافة إلى اختلاف سياق الأقوال في الكتابين، وشدة اهتمام السيوطي في كتاب المزهرة بالنص على مصادره التي ينقل عنها.

وقد نقل شهاب الدين الخفاجي (١٠٦٩هـ) أيضاً هذا النص في كتابه: «شفاء الغليل»، فقال: «قال المطرزي وغيره: فارسي معرب كوز، وقال ابن الأنباري^(٩): هو مولد، والحق الأول، قال الصغاني في خلق الإنسان: لم أسمعه في كلام فصيح ولا شعر صحيح إلا في قوله...». ثم نقل أربعة أشطر من الرجز المذكور في كتاب السيوطي، وقول أبي حيان^(١٠).

كتاب المزهرة من مصادر الخفاجي، وخاصة النوع الحادي والعشرون منه الذي في معرفة المولد، وقد أحال فيه السيوطي عند الكلام على اللفظ على كتابه في مواسم النكاح، فلعل الخفاجي نقل النص - بعد ما تصرف فيه - من الكتاب المذكور أو غيره من مؤلفات السيوطي في موضوع النكاح.

ومن الملاحظ أن سياقة النص في شفاء الغليل قريبة من سياقته في كتاب الوشاح، أما كتاب المزهرة فلم يورد السيوطي فيه نص كتاب خلق الإنسان، وجعل صاحبه مرجحاً لعربية اللفظ، ولاشك أن ذلك وهم منه. وكان الصفدي مصيباً إذ لخص مذهب المؤلف بأنه «غير غربي على الصحيح»، كما سنرى في الفقرة الآتية.

ومن الشهاب الخفاجي نقل هذا النص تلميذه محمد أمين المحبي (١١١١هـ) في كتابه: «قصد السبيل»^(١١)، والمرضى الزبيدي (١٢٠٥هـ) في «تاج العروس»^(١٢)، غير أن الزبيدي كان أميناً في نقله إذ قال: «وفي شفاء الغليل للخفاجي: قال الصاعاني في خلق الإنسان...». أما المحبي فنقل كلام الخفاجي برومته من غير إشارة إليه!

اتضح مما سبق أن خمسة من العلماء نسبوا كتاب خلق الإنسان هذا إلى الصعاني قبل بروكلمان، غير أنهم جميعاً نقلوا نصاً واحداً بعينه، ولم يقف على الكتاب - فيما يظهر - إلا الناقل الأول، وهو بدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ)، فله وجد نسخة شبيهة بنسختنا التي تضمنت مع هذا الكتاب رسائل الصعاني فالتبس عليه الأمر، أو سقطت إليه نسخة مفردة منه نسبها ناسخها إلى الصعاني. وسيأتي في الفقرة الرابعة ما يقطع بأن هذا الكتاب ليس للصعاني.

(٢) اطلاع الصفدي على كتاب أبي محمد:

وقف صلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ) على نسخة من هذا الكتاب، وأعجب به، ولكن لم يعرف مؤلفه. فقد ذكر في كتابه: «الغيث المسحوم»، وهو يشرح بيت الطغرائي:

ناءً عن الأهل صفر الكف منفرد كالسيف عزي متناه عن الخلل
أن الإنسان من أعضائه عشرة أول كل عضو منها كاف، وبعدها عددها
حكى أن «بعض أشياخ اللغة طلب منه عددها، فعد تسعة أعضاء ونسي... فلما
قام إلى بيت الخلاء ذكرها، وقد كان قبل ذلك قد ذكر الكرش، فقليل له: ليس
للإنسان كرش إنما هي الأعفاج»، فلما وقف الصفدي على كتاب خلق الإنسان

هذا أعجبه أنه زاد على ما ذكره زيادة كبيرة، فقال: «وقد رأيت أنا مجلدًا لم أعرف اسم مصنفه قد جمع فيه أسماء أعضاء الرجال والنساء على حروف المعجم، وهذا اطلاع كبير، فرأيت فيه زيادة في حروف الكاف على ما ذكرته هنا: الكذوب: النفس، والكعبيرة: عقدة مكبلة حائدة عن الرأس...» وأورد سبع عشرة كلمة مع تلخيص معانيها من هذا الكتاب وعلى نسقه، إلا لفظًا واحدًا أخره لأنه «غير عربي على الصحيح»^(١٣).

ويبدو أن السؤال عن أسماء أعضاء الإنسان التي أولها حرف الكاف كان من المسائل الدوارة في مجالس الكبراء، فإن المسألة نفسها كانت سببًا لتأليف كتابنا هذا وترتيبه على حروف المعجم كما ذكر أبو محمد في فاتحة الكتاب، مخاطبًا صاحبه الذي ألفه لأجله: «لما تأدى إلي يا أخي... فرط إعجابك وشدة شغفك بقول بعض المتأدبين في مجلسك: كم في جسد الإنسان من عضو أول حرف من اسمه كاف، وأنه قطع من حضره، وحصر من سمعه، حتني ذلك على أن أضع كتابًا...».

ولعل ولوع المتأدبين بهذه المسألة هو الذي أغرى بعض الظرفاء بأن ينسب إلى ابن خالويه - وكان شيخه أبو عمر الزاهد أولى به - أنه «وضع مسألة سماها (الأنطاكية) اشتملت على ثلاثمئة عضو من أعضاء الإنسان أول كل كلمة منها كاف!» حكاها الصفدي بصيغة التمرريض، ولم أجد لها ذكرًا في مؤلفات ابن خالويه، ولا في كتب خلق الإنسان.

(٣) آخر من نقل عنه المؤلف وفاة:

ذكر محقق الكتاب أن آخر من أخذ عنه المؤلف زمنًا أبو عمر الزاهد

المتوفى سنة ٣٤٥ هـ) في المقدمة ٣٥٠ هـ وهو خطأ، فاستدرك عليه الدكتور إحسان النص بأن: «الصحيح أن آخرهم هو ابن خالويه الحسين بن أحمد المتوفى سنة ٣٧٠ هـ، وقد ذكره المؤلف في أكثر من موضع في كتابه ... ولهذا الاستدراك شأنه في تعيين زمن حياة المؤلف، فمؤلف الكتاب وجد بعد زمن ابن خالويه أو كان معاصراً له» (ص ٢٣٠).

قلت: بل الصحيح أن آخرهم أبو أسامة جنادة بن محمد بن الحسين الهروي اللغوي الذي قتله الحاكم سنة ٣٩٩ هـ، وقد نقل عنه المؤلف في (ص ١٤١): «وحكى جنادة عن ابن حمدويه...»^(١٤).

(٤) ترجمة العبدري الذي نسخ نسخته من أصل المؤلف:

النسخة التي نشر عنها كتاب خلق الإنسان خالية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ، ولكن أحد العلماء كتب في آخرها: «كان في آخر النسخة التي نسخ هذا الكتاب منها ما مثاله بنصه سواء: ووجدت في آخر النسخة التي نقلت منها في سنة تسع وستمائة ما مثاله: كتب عبد الله بن الحسن بن عشير العبدري لنفسه بشعر الإسكندرية المحروس، ونقله من نسخة المؤلف بخطه، والحمد لله وحده».

هذه العبارة في غاية الأهمية، فإنها رفعت نسب النسخة التي وصلتنا إلى أصل المؤلف، فبينها وبين الأصل نسختان: الأولى ناسخها مجهول ولكن تاريخ نسخها معلوم وهو ٦٠٩ هـ، والثانية تاريخها مجهول ولكن ناسخها معلوم، وإن العثور على ترجمته سيفيدنا في معرفة زمن المؤلف، يقول المحقق (ص ١٤) «ولم يترك لنا الناسخ هذا أية إشارة تدل على العصر الذي نسخته فيه ولا يمهد لنا طريقاً يرشدنا إلى هذا العصر».

قلت: هذا الناسخ معروف، وقد ترجم له القفطي (ت ٦٤٦هـ) في «إنباه الرواة»^(١٥) والسيوطي في «بغية الوعاة»^(١٦)، ومصدرهما جميعاً معجم السفر للحافظ أبي طاهر السلفي (٥٧٦هـ) الذي جاء فيه: «سمعت أبا محمد عبد الله بن الحسن بن عشير العبدري اليابسي النحوي بالثغر يقول: قرأت على أبي الحسين سليمان بن محمد بن طراوة السبائي المالقي النحوي بالأندلس، ولم أر مثله، وكان يعظمه جداً: أبو محمد هذا كان مصدراً في جامع الإسكندرية لإقراء القرآن والنحو، وأنشدني كثيراً من شعره. وتوفي سنة... وكان وصى بأن أصلي عليه، وكان يوماً بارداً، وقد وقع برد عظيم فصليت عليه، ودفن بمقبرة باب البحر، ولم يحضر كثير ناس، فالوحوّل تحول، ونزول الأمطار يمنع عن قضاء الأوطار»^(١٧).

اليابسي: نسبة إلى جزيرة اليابسة بالأندلس، وفي شرقيها جزيرة ميورقة، وأقرب بر إليها مدينة دانية^(١٨).

ولم يذكر في معجم السفر تاريخ وفاة العبدري، ومكانه بياض في النسختين. أما ياقوت فيبدو أنه اعتمد على مصدر آخر، فذكر تاريخ الوفاة مفصلاً، فقال في رسم اليابسة (٥/٢٢٤): «وينسب إليها من المتأخرين أبو محمد عبد الله بن الحسن (في المطبوعة: الحسين خطأ) بن عشير اليابسي الشاعر. مات ليلة السبت في العشرين من المحرم سنة ٦٢٥هـ»^(١٩).

ولا شك أنه قد وقع خطأ في ذكر السنة، فإن الحافظ السلفي الذي صلى عليه قد توفي سنة ٥٧٦هـ، ولعل الصواب ما في معجم البلدان: سنة (٥٢٥هـ)، كما ذهب إليه محقق معجم السفر.

ولا يفوتني هنا أن أنه على غلط وقع فيه القفطي فيما نقله من معجم

السفر إذ قال: «دفن بمقبرة باب البحر بالإسكندرية ووصى أن يصلي عليه أبو طاهر السلفي، فلم يمكنه ذلك لوجل ومطر كان في ذلك اليوم»^(٢٠). فهذا كما ترى مخالف لما صرح به السلفي نفسه من أنه صلى عليه، ولا شك أن ذلك من تسرع القفطي فيما ينقله من المصادر. وله أمثلة غير قليلة في كتابه الممتع.

وترجمة العبدري هذه قاطعة بأن كتاب خلق الإنسان ليس من تأليف الصغاني، فقد توفي العبدري قبل ميلاد الصغاني في سنة (٥٧٧هـ) بأكثر من خمسين عامًا.

(٥) زمن المؤلف:

في ضوء ما ذكرناه في الفقرة الثالثة من وفاة آخر من نقل عنه المؤلف سنة (٣٩٩هـ)، وما علمنا في ترجمة العبدري (الذي نسخ نسخته من أصل المؤلف) في الفقرة السابقة أنه توفي سنة (٥٢٥هـ)، يتعين الزمن الذي عاش في بعضه المؤلف، وهو من أواخر القرن الرابع إلى أوائل القرن السادس. فإذا افترضنا أنه ولد في أواخر القرن الرابع، فإنه لم يدرك علماءه الذين نقل عنهم، إذ لم يصرح بسماعه عن أحد منهم، وقد توفي آخرهم في سنة (٣٩٩هـ). ومن ثم نرجح أن مؤلف الكتاب من القرن الخامس الهجري.

وقد ارتأى الدكتور إحسان النص أنه «عاش في حقبة تمتد من أواخر القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن الخامس الهجري» واستدل على ذلك بأمرين: الأول أنه «لم يذكر أنه أخذ عن أي مصنف بعد ابن خالويه المتوفى ٣٧٠هـ»، وهو خطأ قد سبق تصحيحه. والثاني أنه «قد وجد في القرنين الخامس والسادس علماء صنفوا في موضوع خلق الإنسان، وأشهرهم ابن سيده علي بن إسماعيل المتوفى سنة (٤٥٨هـ)، وكتابه المخصص أوسع مصدر لبحث

خلق الإنسان، فلو أن المؤلف عاش بعد زمنه لكان من المحتم أن يأخذ عنه... ولا سيما إذا كان المؤلف أندلسياً حسبما استظهر المحقق، ولهذا أراه توفي قبل أن يؤلف ابن سيده كتابه المخصص» (ص ٢٣١).

أولاً: لا دليل على كون المؤلف أندلسياً، وأما ما استظهر به محقق الكتاب على ذلك، أعني الجمل الدعائية التي جاءت في فاتحة الكتاب، وظنّها «سمة أندلسية خاصة»، فهو أسلوب قديم معروف في كتب أهل المشرق. انظر مثلاً: كتاب الحيوان وكتاب البخلاء للجاحظ (٢٥٥هـ)، وكتاب من اسمه عمرو من الشعراء لابن الجراح (٢٩٦هـ)، والزهرة لمحمد ابن داود الأصبهاني (٢٩٧هـ)، وحروف المعاني للزجاجي (٣٤٠هـ)، والموازنة للآمدي (٣٧٠هـ)، والخصائص، وسر صناعة الإعراب لابن جني (٣٩٢هـ).

ثانياً: ليس من المحتم أن يأخذ المؤلف عن ابن سيده، ولو كان أندلسياً عاش بعده. فهذا ابن سيده نفسه عاش حتماً بعد ابن السيّد المتوفى سنة ٣٨٢هـ، وكلاهما أندلسي، وكان ابن سيّد إماماً في اللغة والعربية، وقد صنف كتاباً سماه «العالم» في اللغة يقول فيه ابن حزم، وهو يذكر أهم كتب اللغة التي ألفت في الأندلس: «ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد في اللغة المعروف بكتاب العالم، نحومة سفر على الأجناس، في غاية الإيعاب، بدأ بالفلك وختم بالذرة»^(٢١). فكتاب العالم من نمط كتاب المخصص، ولكن لم يُشير ابن سيده في المخصص إلى كتاب العالم، فضلاً عن النقل منه»^(٢٢).

وهذا ثابت بن أبي ثابت وراق أبي عبيد (٢٢٤هـ) من علماء القرن الثالث الهجري، وكتابه من أحسن الكتب المؤلفة في خلق الإنسان، وعاش من دون شك قبل أبي محمد، ولكن لا نرى له أثراً في كتابه، بينما هو من أكبر

مصادر ابن سيده في كتاب خلق الإنسان من المخصص.

وكتاب المخصص الذي ألفه ابن سيده قبل كتاب المحكم، لم يكن حظه من الشهرة والانتشار كحظ المحكم. فلم يقف عليه القفطي المتوفى سنة ٦٢٤هـ - وهو من هو في الشغف بالكتب واقتنائها - فإنه لما ترجم لابن سيده في إنباه الرواة أثنى على كتاب المحكم ثناءً بالغاً، وذكر أنه «في وقف التاج البندهي بدمشق في رباط الصوفية». فلم يذكر كتاب المخصص بل اكتفى بقوله: «وله غير ذلك من الكتب الأدبية». ثم نقل عن ابن بشكوال أن من تواليفه «كتاب المحكم في اللغة، وكتاب المخصص، وكتاب...»^(٢٣)، كأنه زاد ذلك فيما بعد لما وقف على كتاب الصلة. وكذلك السيوطي المتوفى في سنة ٩١١هـ لم يُشر إلى كتاب المخصص في ترجمة ابن سيده في بغية الوعاة^(٢٤)، ولا ذكره في كتاب الزهر، ولا استفاد منه في كتابه خلق الإنسان.

وما لنا نذهب بعيداً، فنحن في زمننا هذا - زمن الطباعة والحاسوب والناسوخ - لا نعلم أحياناً عن بعض الكتب أنه قد نشر في بلد من بلاد المجاورة، وإذا علمنا بنشره تعذر علينا الحصول عليه! وأقرب دليل على ذلك أن كتب خلق الإنسان، التي تحدث عنها الدكتور إحسان النص في مقاله، أربعة كتب ليس منها كتاب السيوطي «غاية الإحسان في خلق الإنسان»، مع أنه نُشر في القاهرة سنة ١٩٩١م أي قبل سبع سنوات من نشر مقاله في مجلة المجمع! فلو وقف عليه ما أغفله، لما يمتاز به من غزارة المادة والاعتماد على مصادر لم يصلنا بعضها.

ومحقق كتاب السيوطي يذكر أبا محمد من المؤلفين في خلق الإنسان، ويحيل في ذلك إلى نشرة أخبار التراث العربي عدد نوفمبر وديسمبر ١٩٨٥م، ولا يعلم أن كتاب أبي محمد طبع في الكويت سنة ١٩٨٦م، أي قبل إصداره

كتاب السيوطي بخمس سنوات!

إذا صح كل هذا في زمننا هذا الذي يقال إن سرعة الاتصالات قد صيرت العالم فيه كقرية صغيرة، فماذا عسى أن نقول في العصور الخوالي!

(٦) المؤلف ونسبة (الشيرازي):

كتاب خلق الإنسان في نسخة داماد زاده بيتدى في (٧٧/ظ)، بعد ما تنتهي رسائل الصغاني في (٧٧/و)، فكتب بعض القراء بعد نهايتها العبارة الآتية: «كتاب خلق الإنسان في اللغة تأليف أبي محمد الحسن بن أحمد ابن عبد الرحمن رحمه الله» وهذا يوافق ما جاء في آخر الكتاب ولكنه زاد فيما بعد لفظة «الكامل» بعد كلمة «الإنسان»، كما زاد نسبة «الشيرازي» قبل «رحمه الله» وكتب الكلمتين فوق السطر. فهل كان ذلك اجتهادًا من الكاتب، أو اطلع على نسخة أخرى من الكتاب سمي فيها بكتاب «خلق الإنسان الكامل في اللغة»، كما أضيفت فيها إلى اسم المؤلف نسبة «الشيرازي»؟

يقول المحقق في تعليقه على هذه العبارة (ص ١٤): «ولابد أن هذا القارئ حين أضاف هذه النسبة كان يعرف المؤلف، ويعلم أنه شيرازي، ومع أن ذلك لا يفيد كثيرًا في كشف الغموض الذي يكتنف اسم المؤلف فإنه ضيق - إلى حد ما - دائرة الغموض بهذه النسبة».

قلت: إن نسبة «الشيرازي» - إذا ثبتت - تثير سؤالاً، بل تجعلنا أمام توافق غريب في الأسماء، وكأننا عثرنا على شخصية المؤلف، فإن والده في ضوء العبارة السابقة: أحمد بن عبد الرحمن الشيرازي، وهو يوافق تمامًا اسم إمام مشهور في علم الحديث توفي في أوائل القرن الخامس، ترجم له الذهبي في سير

أعلام النبلاء فقال:

«الإمام الحافظ الجوّد أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد ابن موسى الشيرازي، مصنف كتاب الألقاب سماعنا. سمع أبا بحر محمد بن الحسن البرهماري وأبا بكر القطيعي وعلي بن أحمد المصيبي وأبا القاسم الطبراني... قال الحافظ شيرويه الديلمي: كان ثقة صادقاً حافظاً، يحسن هذا الشأن جيداً جداً، فخرج من عندنا يعني همدان سنة أربع وأربعمئة إلى شيراز، وأخبرت أنه مات بها سنة إحدى عشرة وأربعمئة. كذا قال، وأما أبو القاسم بن منده (ت ٤٧٠هـ)، فقال: توفي في شوال سنة سبع وأربعمئة، فهذا أشبه. قلت: كان من فرسان الحديث، واسع الرحلة...»^(٢٥).

ولكن لم يذكر في ترجمته أن له ابناً يسمى الحسن، وذلك يجعلنا نتردد في قبول زيادة «الشيرازي» إذا كانت اجتهاداً من الكاتب، وخاصة لأنها لم ترد في الأصل، إلا أن زمنه يوافق زمن مؤلف كتاب: خلق الإنسان.

(٧) ترتيب الكتاب على حروف المعجم:

كتاب خلق الإنسان لأبي محمد مرتب على حروف المعجم، يقول في ذلك محقق الكتاب: «إن تصنيف الكتب على حروف المعجم على النحو الذي اتبعه المؤلف هنا لا نجد له أثرًا في القرون الأولى من الهجرة حتى القرنين الثالث والرابع، ولعل أول بادرة لهذا النمط من التأليف نجدها في كتب أبي محمد الأعرابي المعروف بالأسود الغندجاني (كان يعيش سنة ٤٢٨هـ) الذي اهتم بوجه خاص بترتيب مصنفاته على حروف المعجم، ولعل كتابنا هذا - وهو شبيه في ترتيبه بكتب أبي محمد الأعرابي - قد ألف في عصره أو قريباً منه» (المقدمة ص ١٦).

والدكتور إحسان النص أيضاً أشار إلى ذلك، وهو يتحدث عن منهج الكتاب، فقال: «وهذا النهج جديد في بابه، فمصنفات خلق الإنسان السابقة كانت تجعل لكل عضو باباً مستقلاً، فجاء كتاب المؤلف مغايراً لما سبقه، وكان معجماً مرتباً على الحروف في أسماء أعضاء الإنسان، وتلك ميزة لهذا الكتاب» (٢٣٢). وأشار الدكتور أيضاً إلى الغندجاني فقال: «وقد جرى المؤلف على نهج الغندجاني في ترتيب أبواب كتابه على الحروف، وهي الطريقة التي اتبعها الغندجاني في مصنفاته...».

وهنا عدة مآخذ على كلامهما:

أولاً: لا يصح أن ترتيب الكتب على حروف المعجم لم يعرف إلى القرن الرابع، فقد سبق كراع النمل المتوفى سنة (٣١٦هـ) المتقدمين والمتأخرين، إذ وضع معجماً كاملاً - وهو المجرد - رتبه على حروف المعجم، وجعل الحرف الأول باباً والثاني فصلاً غير معتد بالزوائد^(٢٦). ولعل الأصل الذي اختصر منه المجرد - وهو المنضد - أيضاً كان على هذا الترتيب^(٢٧).

ثانياً: إذا نظرنا في الكتب المؤلفة في خلق الإنسان فقط، فإن كتاب أبي جعفر محمد بن حبيب مرتب على حروف المعجم، وقد توفي سنة ٢٤٥هـ^(٢٨).

ثالثاً: لم ينشر من كتب الغندجاني إلا ثلاثة كتب: كتاب «فرحة الأديب»، وكتاب «إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمري في تفسير معاني أبيات الحماسة»، وكتاب «أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها». وهذا الكتاب الأخير هو الذي رتبه الغندجاني على حروف المعجم، فقول المحقق إن الغندجاني اهتم بوجه خاص بترتيب مصنفاته على حروف المعجم، وكذلك قول الدكتور إحسان النص: «وهي الطريقة التي اتبعها الغندجاني في مصنفاته». تنقصها الدقة في التعبير، فإن كلامهما

يُوحى بأن للغندجاني عدة مصنفات عني بترتيبها على حروف المعجم. والجدير بالذكر أن لأبي منصور عبد الله بن سعيد الخوافي اللغوي كتابًا في خلق الإنسان، وذكر في ترجمته أنه مرتب على حروف المعجم، وقد توفي الخوافي سنة ٥٣٨٠هـ، فهو أقدم من أبي محمد^(٢٩).

ذكر الدكتور إحسان النص أنه قد تبادر إلى خاطره في أول الأمر أن يكون مؤلف الكتاب «هو الأسود الغندجاني الحسن بن أحمد المتوفى سنة ٥٤٢٨هـ...». لم تذكر المصادر أن الغندجاني توفي سنة ٥٤٢٨هـ، وإنما قال ياقوت «قرأت في بعض تصانيفه أنه صنف في شهر سنة اثنتي عشرة وأربعمئة، وقرأ عليه في سنة ثمان وعشرين وأربعمئة»^(٣٠). ومن هنا كتب الدكتور أحمد خان في عبارته التي نقلناها آنفًا «كان يعيش سنة ٤٢٨هـ». أما محقق كتب الغندجاني، فكتب على مؤلفاته الثلاثة أنه كان حيًا سنة ٥٤٣٠هـ، اعتمادًا على ما جاء في أول كتاب إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمري... أنه عمله للمجلس العادي العالي نوره الله في شهر سنة ثلاثين وأربعمئة.

وقد تبّعت من قبل في مقالي «إصلاح الإصحاح» في نقد نشره الدكتور محمد علي سلطاني للكتاب الأخير على أن في كتاب إنباه الرواة (٤: ١٧٤ - ١٧٥) ترجمة للغندجاني، ذكر فيها القفطي أنه توفي بالغندجان سنة ٥٤٣٦هـ^(٣١).

(٨) قصة بيع الجماهرة بين القالي والقالبي:

من مميزات مخطوطة كتاب «خلق الإنسان» أن بعض العلماء قابلها بأصل المؤلف، ثم علق في مواضع عديدة منها بالرجوع إلى مصادر أخرى نحو كتاب «المجرد» لكراع النمل و«مختصر العين»، و«جبهة اللغة»، ومن تعليقاته على كلمة (العضاض) في الورقة (١٢٠/و): «وفي الجماهرة لابن دريد، ونقلته

[من] خط أبي علي القالي رحمه الله: الغضاض...». أشار محقق الكتاب إلى هذه الحاشية وقال: «ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أذكر أن النسخة التي كانت أمامه من الجمهرة كانت نسخة المؤلف، وعليها خط أبي علي القالي... ومن الطريف أن هذه النسخة هي النسخة نفسها التي باعها أبو علي القالي - حين اشتدت الحاجة به - بأربعين مثقالاً، وكتب عليها الأبيات، وتمام الخبر في المزهر للسيوطي» (المقدمة ص ٣١).

ليس في كلام المحشي ما يدل على أن نسخة الجمهرة التي نقل منها كانت بخط المؤلف، ولكن غلبت على المحقق حكاية المزهر، وهي كما أوردها السيوطي: «وقال بعضهم: كان لأبي علي القالي نسخة من الجمهرة بخط مؤلفها، وكان قد أعطي بها ثلاثمئة مثقال، فأبي، فاشتدت به الحاجة، فباعها بأربعين مثقالاً، وكتب عليها هذه الأبيات.

أنست بها عشرين عامًا وبعثها وقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لعجزٍ وافتقارٍ وصبيبةٍ صغارٍ عليهم تستهلُّ شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرتي مقالة مَكْوِيّ الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك كرائم من ربِّ بهن ضنين

قال: فأرسلها الذي اشتراها وأرسل معها أربعين دينارًا أخرى. وجدت هذه الحكاية مكتوبة بخط القاضي مجد الدين الفيروزآبادي صاحب القاموس على ظهر نسخة من العباب للصغاني، ونقل من خطه تلميذه أبو حامد محمد بن الضياء الحنفي، ونقلتها من خطه»^(٣٢).

هذه الحكاية التي أسندها الفيروزآبادي إلى شخص مجهول، قد وقع فيها الغلط من عدة وجوه، أهمها أن الذي باع نسخته من الجمهرة، وكتب هذه الأبيات التي ضمنها بيتاً قديماً - وهو البيت الأخير - هو أبو الحسن علي بن أحمد الفالي (بالفاء) المتوفى سنة (٤٤٨هـ)، لا أبو علي الفالي (بالقاف) المتوفى سنة (٣٥٦هـ). أجمعت على ذلك كتب التاريخ والتراجم، ولم يشذ عنها إلا هذه الرواية المدخولة^(٣٣).

ولعل أول من نبه على هذا الغلط العلامة عبد العزيز الميمني رحمه الله، إذ قال في شرحه لذيل أمالي الفالي وصلة ذيله، وهو الجزء الثالث من سمط اللآلي: «وغلط المتأخرون، فظنوا الفالي (بالفاء المنقوطة بنقطة واحدة) صاحبنا أبا علي...»^(٣٤).

وجاز هذا التصحيح على الأستاذ أحمد أمين في كتابه ظهر الإسلام (١: ١١٧)، فنبه عليه الأستاذ مصطفى جواد في مقدمة كتاب تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني^(٣٥).

وقد بسطت في موضع آخر ترجمة أبي الحسن الفالي، مع تحرير قصة بيع نسخته من الجمهرة، وتتبع القصص التي تمثل أصحابها بالبيت القاسم الذي ضمنه الفالي.

الحواشي

١- من المذكورين في هذا الفهرس: ابن الأعرابي أحمد بن محمد بن زياد المتوفى سنة (٣٤٠هـ)، ولعل الكاتب الفاضل تابع في ذلك محقق كتاب خلق الإنسان (ص ٩). وهو وهمٌ بلا شك، فإن ابن الأعرابي المذكور كان محدثاً صوفياً من أصحاب الجنيد، ولم يعرف له تأليف في اللغة. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤٠٧/١٥. أما الذي ألف في خلق الإنسان فهو أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي المتوفى سنة (٢٣١هـ)، وكتابه من مصادر خلق = الإنسان لثابت، كما ذكر في أوله. ومن أوهام هذا الفهرس أنه لما ذكر أبا موسى الحامض قال: «لم يذكره

- النسب وذكره القفطي» مع أن النسب ذكره في ص ٨٧ (طبعة تجدد).
- ٢- انظر مقدمة المحقق ص ١٨ الحاشية ٥.
- ٣- ليضف هذا الكتاب إلى ثبت مؤلفات الزركشي، فإنه لم يذكر في ترجمته، وقد فات محققي كتبه مع رجوعهم إلى كتاب المزهري لأن فهرس الأعلام فيه أخلّ بهذا الموضوع. وقد ذكر صاحب كشف الظنون (ص ١٩١٥) كتابين بهذا العنوان: أحدهما للحافظ زين الدين العراقي (٦٨٠هـ) والآخر للشيخ سراج الدين اليميني (٨٨٧هـ)، ولكن لم يشر إلى كتاب الزركشي هذا.
- ٤- المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى بك وزميليه، مكتبة دار التراث، القاهرة، (٣١٠/١).
- ٥- كذا في المزهري (مراسم) بالراء، ولعل الصواب بالواو، كما في مخطوطة كتاب الوشاح وكشف الظنون (٥١٧٩/٢).
- ٦- انظر بروكلمان (الترجمة العربية) القسم السادس: ٦٥٨ (ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م)، ودليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها، إعداد أحمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيباني، مكتبة ابن تيمية، الكويت، ١٤٠٣هـ، ص ٢٥٤. وزد على مخطوطاته: نسخة محفوظة في مكتبة جامعة أم القرى برقم ١١٩٩.
- ٧- الوشاح في فوائد النكاح، نسخة جامعة الملك سعود برقم ٧٥٧هـ، نسخها عمر القباني سنة ١١١٦هـ.
- ٨- غاية الإحسان في خلق الإنسان، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٩٧.
- ٩- في الوشاح: «سلامة ابن الأنباري»، فاختصره الخفاجي بحذف (سلامة)، فأوهم أنه أبو بكر محمد بن قاسم الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ الذي نقل من كتابه: (الزاهر) في عدة مواضع. والمعروف في اسم الأول: سلامة الأنباري، كما في المزهري. وهو سلامة بن عبد الباقي، أبو الخير الأنباري النحوي الضرير المتوفى سنة ٥٩٠هـ، من مؤلفاته: شرح مقامات الحريري، وهو من مصادر كتاب المزهري. انظر ترجمته في بغية = الوعاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر ١٣٩٩هـ، (٥٩٣/١).

- ١٠- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، الخانجي، القاهرة، ١٣٢٥هـ، ص ١٧١.
- ١١- قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل، تحقيق عثمان محمود الصيني، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤١٥هـ، (٣٩٥/٢).
- ١٢- تاج العروس، المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٠٦هـ، (٢٣٣/٤).
- ١٣- الغيث المسحوم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ، (١٢٧/١).
- ١٤- انظر ترجمة جنادة في معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، (٨٠٠/٢).
- ١٥- إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ، (١١٥/٢).
- ١٦- بغية الوعاة (٣٨/٢).
- ١٧- معجم السفر، تحقيق شير محمد زمان، مجمع البحوث الإسلامية، إسلام آباد، ١٩٨٨م، ص ١٥٠.
- ١٨- انظر الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ١٩٨٤م، ص ٦١٦.
- ١٩- معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت، (٤٢٤/٥).
- ٢٠- إنباه الرواة (١١٥/٢).
- ٢١- انظر معجم الأدباء (١٦٤/١) حاشية المحقق. وقد وصل إلينا السفر الثالث منه، وهو يشتمل على فصول في خلق الإنسان. انظر سركين المجلد الثامن: ٤٩١ (الترجمة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٨هـ).
- ٢٢- وقيل: إن كتاب العالم هو أصل المخصص، بل سلخه ابن سيده سلخًا. انظر بحوث وتحقيقات للميمني (١٤/١) إعداد: محمد عزيز شمس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٥م.
- ٢٣- إنباه الرواة (٢٢٦/٢).
- ٢٤- بغية الوعاة (١٤٣/٢).

- ٢٥- سير أعلام النبلاء (١٧/٢٤٢ - ٢٤٣)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- ٢٦- قد صدر السفر الأول من كتاب المجرّد بتحقيق محمد بن أحمد العمري سنة ١٤١٣هـ وطبع بمطابع دار المعارف بمصر، وانظر مقدمة المحقق ص ١٩. وقد أخرج من قبل كتاباً آخر لكراخ وهو المنتخب من غريب كلام العرب، نشرته جامعة أم القرى في جزأين سنة ١٤٠٩هـ، فهما كتابان اثنان لا كتاب واحد «المنتخب المجرّد» كما سماه الدكتور إحسان في مقاله (ص ٢٢٢).
- ٢٧- انظر معجم الأدباء (٤/١٦٧٣).
- ٢٨- نشرة أخي المحقق الأستاذ محمد عزير شمس ضمن مجموعة «روائع التراث» (ص ٢٥٩ - ٢٨٥)، الدار السلفية، بومباي، الهند، ١٤١٢هـ.
- ٢٩- انظر ترجمة الخوافي في معجم الأدباء (٤/١٥٢٧)، وبغية الوعاة (٤٣/٢).
- ٣٠- معجم الأدباء (٢/٨٢٢).
- ٣١- انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٦٤، الجزء الثاني، ص ٢٩٠.
- ٣٢- المزهري (١/٩٥).
- ٣٣- انظر المنتظم لابن الجوزي، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، (١٧٤/٨)، ومعجم الأدباء (٤/١٦٤٦)، ووفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (٣/٣١٦)، وسير أعلام النبلاء (١٨/٥٤)، والفلاكة والمفلوكون، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٣٨٥هـ، ص ١٤٨.
- ٣٤- سمط اللآلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٤هـ، (٣/٨٩).
- ٣٥- تكملة إكمال الإكمال، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ، مقدمة المحقق ص ٨ - ١٠.